مَضَيْتَ.. وَمَا لانَتْ قَنَاتُك بَيْنَهُمْ
وَمَا وَهَنَتْ نَفْسٌ عَلَى شَهَوَاتِ
هَوَى بِكَ رُكْنٌ... ما هَوَى عَزْمُكَ الذي
بَنَيْتَ بِهِ رُكنًا وصَرْحَ أُباةِ
نَفَوْكَ... وَمَا هانَتْ بذَاكَ مَحَامِدٌ
وآذَوْك... فاستمسكْتَ بَيْنَ عُتَاةِ
عَلَوْت... فَهَانُوا دون صَبْرِك والهُدَى
وَذَلُّوا... وَرُمْتَ المَجْدَ في ذَرَوَاتِ
سَلامٌ عَلَى رُكْنٍ هَوَى فَهَوَت به
مِنَ الدّار أرْكَانٌ ومِنْ عَزَمَاتِ[1]

*** الحركة السنوسية وشهيدها أسد الصحراء عمر المختار:**

تنتمي هذه الحركة إلى السيد محمد بن علي السنوسي (١٧٨٧م - ١٨٥٩م). وهو من مواليد قرية مستغانم بالجزائر.

أنشأ الزوايا السنوسية التي كانت مراكز دينية ثقافية اجتماعية عسكرية، ودعا إلى التمسك بالعقيدة الإسلامية الصحيحة ومحاربة البدع والخرافات ومحاربة الانحلال الاجتماعي والفساد الإداري والسياسي وإحياء الشريعة، والانضواء تحت لواء الخلافة العثمانية.

أنشا - رحمه الله - الزاوية البيضاء في الجبل الأخضر، ثم نقل الدعوة إلى واحة جنبوب سنة ١٨٥٦م.

❑ ومن قادة السنوسيين السيد أحمد الشريف السنوسي الذي دخل في

(١) «ملحمه الأقصى» للدكتور عدنان النحوي (ص١٤١) - دار النحوي.

حرب طاحنة ضد فرنسا وإيطاليا. وتصدى ـ رحمه اللَّه ـ للفرنسيين في تونس، «ومن النماذج المشرفة لجهاد السنوسيين ضد الإيطاليين المعركة التي عُرِفت باسم معركة يوم الجمعة سنة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م، قرب درنة، إذ جاهد السيد/ أحمد الشريف السنوسي والمجاهدون جهادًا عنيفًا، وأبلوا فيها بلاءً حسنًا رغم عدم التكافؤ حسب موازين القوى ـ لكن اللَّه سبحانه كتب النصر لهم في هذه الموقعة في الوقت الذي كان سلاحهم ما يعرف باسم «السلاح الأبيض» كالسيف والخناجر وغيرها أما سلاح الأعداء فالمدافع والبنادق مع تفاوت كبير في العدد والعدّة حتى اعتقد الكثيرون أن النصر جاء كرامة للسيد الشريف السنوسي»[1].

❑ وبعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م ـ ١٩١٨م) اجتمع زعماء طرابلس في مؤتمر غريان سنة ١٣٤١هـ/ ١٩٢٢م، وقرروا توحيد ليبيا تحت زعامة الأمير إدريس السنوسي، تمهيدًا لإستئناف الجهاد، ووصل موسوليني إلى حكم إيطاليا في نفس السنة وأعلن أن ليبيا إيطالية، وألغى اتفاقيات سنة ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م (صلح بنيادم) الذي ينص على وقف القتال ومنح طرابلس قانونًا أساسيًّا يضمن المساواة والحرية الدينية والشخصية[2].

❑ حين تغنّي الجنود الإيطاليون بنشيدهم: «أنا ذاهب إلى ليبيا فرحًا مسرورًا.. لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة ومحو القرآن! وإذا مت يا أماه فلا تبكيني! وإذا سألك أحد عن عدم حدادك فقولي: لقد مات وهو يحارب الإسلام»[3] خرج إليهم جنود الإسلام يقودهم أسد الصحراء عمر

(١) «الموسوعة الحركية» لفتحي يكن (١/ ١٥٦).

(٢) «نماذج من حركات الجهاد الإسلامية الحديثة: السنوسية ـ البادسية ـ القسّامية» لصفوت منصور (ص٦٣).

(٣) «التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية» للدكتور أحمد شلبي الجزء الرابع.

المختار وهو شيخ طاعن في السن، وهاجمهم في بنغازي و«القصور» و«تكنس» و«دفنا»، وجعل من الجبل الأخضر مقرًّا له، ولما حاول مشايخ قبيلته منعه من العودة إلى «برقة» مجاهدًا قال: «إن ما أسير فيه هو طريق الخير، ومن يبعدني عنها فهو عدو لي، ولا ينبغي لأحد أن ينهاني عنها».

وقبل ذلك كبّد هو ورفاقه الفرنسيين في «التبستي» خسائر فادحة قبل وصول إيطاليا إلى ليبيا مستعمرة لها.

وستذكر إيطاليا كيف دوّخها عمر المختار في معركة «الرحيبة» ومعركة «عقدة المطمورة» من أعظمها، وانتهت كلها بارتداد الإيطاليين. واشتد الجهاد في عامي ١٩٢٤، ١٩٢٥، بوقوع معارك عدة، ولمع اسم عمر المختار كقائد بارع يتقن أساليب الكرّ والفرّ.

ولما أراد الطليان الاستيلاء على «القران» واحتلال عاصمتها سنة ١٩٢٨، التحم المجاهدون مع الجيش الإيطالي بقيادة «جرازياني» في معركة دامية، استمرت خمسة أيام بتمامها، وقد انهزم الإيطاليون شر هزيمة، ومرة أخرى حاولوا الكرّة، وأباد المجاهدون أكثر الإيطاليين.

ومرة أخرى في «درنة» في ٢٢ أبريل سنة ١٩٢٨م يشتبك معهم في معركة عنيفة دامت يومين، وكان النصر فيها حليفه، وفي السلوم، والحجزة، ومرسى بريقة، وجالو، وأوجلة، وأنزلوا بالطليان خسائر فادحة.

للّه درك يا عمر المختار بحفنة قليلة من الرجال تزلزل أقدام الإيطاليين، ويستولى على عتادهم ومؤنهم، واضطر موسوليني سنة ١٩٢٩م أن يعين «بادوليو» حاكمًا على ليبيا، ويعهد إليه بالقضاء على المقاومة.

وحينما أرسلت إليه إيطاليا بشروطها المزرية، قال: «إني لا أرضى بهذه الشروط، وأفضل الموت جوعًا وعطشًا، ولا ألقى بنفسي وإخواني بين أيدي الإيطاليين يتصرّفون فينا كيف شاءوا». وأراد الطليان أن يستميلوا عمر المختار

بالمال، فأرسلوا إليه مع «بلعون» مدير الحاسة يعرضون عليه مليون فرنك هدية فرفضها.

وحاصر الطليان عمر المختار، وأقاموا الأسلاك الشائكة على طول مسافة لا تقل عن ثلثمائة كيلو متر على طول الحدود الشرقية مع مصر، فلم يضعف بعد أن أصبح هو ورجاله منقطعين عن جميع البشر من جميع الجهات.

وفي أكتوبر سنة ١٩٣٠م تمكن الطليان من الاشتباك مع المجاهدين في معركة كبيرة، وقد عثر الطليان عقب انتهائها على نظارات عمر المختار، كما عثروا على جواده مقتولاً، فأصدروا منشوراً حاولوا فيه أن يقضوا على أسطورة عمر المختار الذي لا يُقهر أبدًا، وقال جرازياني متوعدًا: «لقد أخذنا اليوم نظّارات عمر المختار، وغدًا نأتي برأسه».

وفي ١١ من سبتمبر سنة ١٩٣١ وصل إلى الحكومة برقية، تُفيد أن مصادمات وقعت بين المجاهدين وبين قوة من خيّالة الحكومة بالقرب من «سلنطة»، وأن رجلاً من الأهْلين وقع في أسرهم، وقد عرفه الجند وقالوا: إنه عمر المختار نفسه، قُتِل جميع من معه وقُتِل حصانه، وظل يُقاتل القوة الإيطالية إلى أن جُرِح في يده، ثم تكاثروا عليه وأخذوه أسيرًا. وقال عمر المختار كلماته الغاليات الخالدات: أن القبض عليه، ووقوعه في قبضة الطليان، إنما حدث تنفيذاً لإرادة المولى عز وجل، وأنه قد أصبح أسيراً بأيدي الحكومة الإيطالية، فاللّه سبحانه وتعالى وحده يتولى أمره، وأما أنتم فلكم الآن وقد أخذتموني، أن تفعلوا بي ما تشاءون، وليكن معلومًا أني ما كنت في يوم من الأيام لأُسلِّم لكم طوعًا»[1].

(١) «عمر المختار شهيد الإسلام وأسد الصحراء» لمحمد محمود إسماعيل (ص٤٧) ـ مكتبة القرآن.

وشاءت الأقدار أن يقف البطل الذي حيّر إيطاليا، وأشاع الرعب في قلوب جيشها، أمام جرازياني الذي قطع رحلته إلى باريس ليستدعي البطل في صبيحة اليوم الذي عُقدت فيه المحكمة الطائرة له.

وقبل المُحاكمة بقليل جاءوا بالأسد عمر المختار مُقيَّد اليدين بالسلاسل والقيود، وكان يسير بصعوبة، وقد غطَّى وَجْهَه بحِرامِه، وظهرَ عمر المختار حينئذٍ وليًّا من أولياء اللَّه، لم ينل الأسر والسجن شيئًا من وقاره وجلال هيبته ودار حوارٌ بين الأسد المُسْلسَل، وبين الجبان جرازياني:

جرازياني (مخاطبًا عمر المختار): لماذا حاربت الحكومة الإيطالية هذه الحرب الشديدة؟ عمر: لأن ديني يأمُرُني بذلك. جرازياني: هل كان لديك أيّ أمل في أنك سوف تستطيع إخراجنا من «برقة»، ومعك هذا العدد القليل من الرجال الذين ينخرطون معك، وتلك المعدَّات القليلة التي تملكها؟. عمر: كلاَّ، فإن هذا على ما يبدو كان أمرًا مستحيلاً. جرازياني: ماذا كان غَرَضُك إذن؟ وماذا كنت تبغي؟. عمر: كنتُ مجاهدًا وكفَى، أمَّا ما يَنجمُ من هذا الجهاد؛ فالأمر فيه موكولٌ للَّه وحده. جرازياني: هل أمرتَ فِعْلاً بقتْل الطَّيَّارَيْن «أوبر» و«بياتي»؟ عمر: نعم، فإن الرئيس وحده هو الذي يتحمَّل جميع المسئوليَّات، والحرب هي الحرب. جرازياني: كم من الوقت يُمكنك بما لك من نفوذ وصَوْلَة أن تُخضع الثُّوَّار في الجبل؟ عمر: أبدًا أبدًا، قد أقسَمْنا جميعًا أن نموت واحدًا بعد واحد، ولا نُسلِّم أنفُسنا بتاتًا، ومن المعروف تمامًا أنِّي لم أُسلِّم نفسي إليكم. جرازياني: لا شكَّ أنك كنت طوال حياتك رجلاً شجاعًا، وإني لأرجو أن تكون شجاعًا مهما حدثَ لك أو نزل بك. عمر: إن شاء اللَّه.

وعَرَض جرازياني على عمر المختار عفوًا شاملاً، نظير أن يكتُب بتوقيعه نداءً للمجاهدين، يدعوهم ويطلب إليهم أن يكُفُّوا عن القتال، ويُسلِّموا

أنفسهم وأسلحتهم للحكومة، ورفض عمر لأسباب وضَّحها جرازياني، وهي أن هذا العمل لا يرضي ضميره ودينه، وفضلاً عن ذلك، فإن أحدًا لن يُصدِّق صدور هذا النداء من عمر المختار.

لقد كان عمر المختار هو عمر المختار إلى النهاية! لقد كتب جرازياني في مُؤلَّفه عن «برقة» أنه لا يزال يشعر بالأثر الذي أحدثته في نَفْسه رؤية عمر المختار، وكيف أنه أدركَ لماذا كان المختارُ صاحبَ الكلمة المسموعة والرأي الأعلى بين المجاهدين.

وعُقدت لعمر المختار محاكمةٌ صُورِيَّة في الساعة الخامسة مساء يوم ١٥ سبتمبر عام ١٩٣١ في «برقة»، وتلا رئيسُ المحكمة في الساعة السادسة والربع مساء الحُكْم بإعدام عمر المختار شنقًا، فقابَلَ عمر المختار ذلك بقوله: «إنَّا للَّه وإنَّا إليه راجعون». وفي التاسعة من صباح اليوم التالي، وهو يوم الأربعاء الموافق ١٦ من سبتمبر عام ١٩٣١م، نفَّذ الطليان في «سلوق» حُكم الإعدام شنقًا في السيِّد عمر المختار، الذي كان في السبعين من عمره.

«ودفعت الحَسَّة بالإيطاليين إلى أن يفعلوا شيئًا عجيبًا في تاريخ الشعوب، إذ إنهم أرغموا أعيان البَرْقاوِيِّينَ الذين اعتقلوهم في «بنينة»، كما أرغموا أعيان «بنغازي» وعددًا كبيرًا من الأهالي من مختلف الجهات ـ على حضور عمليَّة التنفيذ، فحَضَرَ ما لا يقلُّ عن عشرين ألف نَسَمَة على قول جرازياني. ويا لها من ساعةٍ رهيبة تلك التي سار فيها عمر المختار بقَدَمٍ ثابتة، وشجاعة نادرة، وهو ينطق بالشهادتين إلى حبل المشنقة، وقد ظلَّ عمر المختار يُرَدِّدُ الشهادتين حتى نفذ فيه الجلاَّدون حكم الإعدام، وعندما وجد هؤلاء أن عمر المختار لم يَمُتْ، أعادوا عمليَّة الشنق مرَّةً ثانية»[1].

عظمة في الحياة، وعظمة في الممات، عشتَ قاتلاً لأعداء اللَّه ومت

(١) «عمر المختار شهيد الإسلام وأسد الصحراء» (ص٥٦، ٥٧).

مقتولاً بيد أعداء اللَّه. للَّه درُّك يا عمر «حتى الموت.. يموت الناس مرَّة، وأنت تموت مرَّتَيْن! لماذا؟ ألاأنَّ اللَّه يريد أن يرفعك بذلك مرَّتين، ويُعطيك على ذلك أجريْن: أجر الشهيد الذي عايَنَ الموت وذَاقَهُ، ثم أجر الشهيد ـ مرة ثانية ـ الذي أراد أعداؤه أن يقتلوه مرَّة ثانية.. وتلك علامات القَبُول.. وذلك أول تاجٍ من تيجان الآخرة»[1].

* الشيخ عزّ الدين القسام إمام وشيخ حركة الجهاد في فلسطين عام ١٩٣٥م:

القسّام:

القسّام القسّام.. اسم سوف يبقى في فلسطين يتردد في أجوائها فيوقع الرعب في قلوب الذين يسيطرون عليها بحرابهم، ويُتلى في صفحات تاريخها الخالدة، فيملأ نفس القارئ إكباراً وإعجابًا.

❑ قال الأستاذ محمد حسن شُرَّاب: «ثبت عندي للقسّام منقبتان جامعتان لكل خلال الخير وهما: أنه شيخ المجاهدين في فلسطين، ورائد من رُوّاد الدعوة إلى اللَّه وإصلاح المجتمع على نهج السلف الصالح»[2].

❑ ولد الشيخ محمد عز الدين بن عبدالقادر بن مصطفى القسّام الشهير «بعز الدين القسّام» في بلدة جَبَلة وهي ثغر من ثغور المسلمين من أعمال حلب قرب اللاذقية عام ١٣٠٠هـ الموافق ١٨٨٣م.

وكان جده مصطفى مقدمًا في الطريقة القادرية الصوفية وورث عبدالقادر الطريقة عن أبيه، وكان أنصار الطريقة القادرية في العراق يقدمون

---

(١) «عمر المختار شهيد الإسلام وأسد الصحراء» (ص٥٦، ٥٧).

(٢) «عز الدين القسّام شيخ المجاهدين في فلسطين» لمحمد حسن شرّاب (ص١٤) ـ دار العلم دمشق.